



مساحة مذهبة من الأرض وقماشة ممتدة من النسيج المجتمعي المتناغم الذي لم تستطع كل عوائق السياسة أو خرائط التقسيم أن تمزقه إلى أمم، فنقى بفضل التماسك الثقافي والمجتمعي أمة واحدة، بينما تمزق كياناته السياسية جحافل الاستبداد وخرائب الفكر النخبوi.

نحن لسنا أمام فضاء خالٍ، بل تملئه أمّة عربية وشعوب تطمح لمستقبل تستحقه؛ ومع ذلك فإن كل قوى الأرض المسورة لا تجد لها مكاناً تتمدد فيه إلا في هذه المنطقة من المعمرة. فإذا أجملنا الأسباب، بعيداً عن تفصيل تاريخي أو تحليل سياسي، فإنها تجمع عند ثلاثة:

**أولاً: السلطات التي تقود دول وممالك العالم العربي:** فهي رغم تنوعها بين ملكي وجمهوري وجمهوري ملكي أو حتى إقطاعي، تتشبه في جوهرها؛ إذ يقع على قمتها أشخاص أو أسر غاية في الضعف وانقطاع الخيال وفقدان شرعية الرضا الشعبي وتلتف حولهم حاشية فقرة الفكر وغير قادر إلا على إبداء الطاعة وإثبات الولاء في شكل هرمي مائع لا قوام له.

**والثاني: الجهد الاستعماري المستمر عبر مائتي سنة لتكريس التقسيم والضعف السياسي والفكك الاقتصادي في المنطقة؛** لأسباب بعضها تاريجي ونفسي أو نزوياً إلى السيطرة على مناطق الطاقة وممرات العبور الواصلة بين أطراف العالم أجمع أو محاولة للسيطرة على الأسواق الاستهلاكية لشعوب معروفة تاريخياً بعشاقها للاستهلاك وميلها للترف.

**والثالث: النخب التي تميزت عن شعوبها،** فورثت عن طبقة الأجانب والمرتبطين بهم من أصحاب الامتيازات والمتمتعين بالحماية تعليماً مفرطاً على الشعب وتحليقاً في عالم مجرد بأفكار وأيديولوجيات لا تنتهي للأرض التي يحيون عليها ولا للشعوب التي ينتمون لها. وهو ما يجعلهم غالباً في تناقض مع اختيارات شعوبهم ويقبلون التضحية بما يُنادون به من شعارات في مقابل بقائهم على قمة "كريمة المجتمع".

إن الخلاف بين مفهومي الأسلامة والعلمنة ليس إلا انعكاساً لهذا الفكر البائس لذنب مختالٍ على شعوبها متشرنقة خلف مصطلحات لا تعبّر عن تاريخ المنطقة ولا عن شعوبها ولا عن حالة محددة من التحرر والإزدهار يمكن للعالم العربي أن ينتقل إليه.

وتتساعد تلك العوامل الثلاثة في تجريف مستمر للحالة العربية من الطموحات والخيال المتطلع ومن ثم إفشال المحاولات

الأجيال للتحول إلى حال أفضل، وذلك باختلاق المعارك الوهمية مما يجر مجتمعاتنا إلى الانقسام والتشرذم خلف عناوين براقة لا تعبر عن شيء وإنما تمهد لضياع الفرصة تلو الفرصة.

لا يتعلق الأمر، فقط، بإفشال التحول الديمقراطي كما يجري لثورات الربيع العربي، وإنما ينعكس أيضاً في إفشال إمكانات التطور الاقتصادي أو الصناعي ومن ثم العجز الدائم عن تحقيق فوائض تسمح بتحقيق طفرة في حياة الشعوب ومعاشرهم، ويمكن ملاحظة ذلك سواء لدى الدول الغنية بسبب ما تملكه من مخزون من الثروات الطبيعية التي يجري تجريفها بأسرع مما يتمنى الخصوم، أو في الدول الفقيرة المنهكة تحت ضغوط الاستبداد والفساد والانقسام المجتمعي.

ومن هنا فإن توجيه سهام النقد إلى القوى الخارجية بسبب تمددها في منطقتنا العربية، سواء في مصر أو اليمن أو ليبيا أو سوريا أو العراق أو غيرها، هو نوع من القفز على جوهر المشكلة.

فالمنطق أن الإناء الممتئ يفيض على الفارغ؛ ومنطقتنا وإن لم تكن فارغة، فإنها مُفرغة عن طريق تغييب شعوبها وسلبها القدرة على الإبداع والمنافسة.

وأول ما تحتاجه أمة للخروج من حالة الغياب التي تعاني منه هو أن تحضر بنفسها لا بنواب عنها مستبدون يفرضون أنفسهم ولا يملكون أية مؤهلات أو ملكات لتمثيل شعوب بهذا الحجم ولا أمة بهذا التطلع.

والمحصلة النهائية لأي بحث سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي ستقود إلى نتيجة واحدة، وهي أن شعوبنا تحتاج للإنفلات من دائرة الاستبداد أولاً ليتمكنها من مواجهة الفساد ثانياً، ومن ثم تتأهل للخروج من التبعية إلى الاستقلال الوطني والقومي الذي يمكنها من أن تكون منافساً شريفاً للقوى الدولية وليس تابعاً منكسراً لأي منها.

ويبدو إن ثورات الربيع العربي، بمراحلها وجولاتها، مازالت هي الخيار الأفضل لتحقيق حالة الحضور الحقيقي والفاعل لأمة غائبة منذ قرنين أو أكثر. ولا أستغرب أن العوامل الثلاثة التي أشرنا إليها تتوافق وتعانق في مشهد مستفز لمواجهة تلك الثورات ومحاولة تفريغها من مطالبتها الحقيقة وتحويلها إلى عمليات للتأثير والنزاع بين فئات مجتمعية أو طوائف مذهبية أو كيانات عرقية.

فالحكومات العربية من الخليج إلى المحيط منخرطة في حالة مسرحية من مواجهة مخاطر هي التي تصنعتها لخلق ملهاة، فإذا بها تنجر لتصبح جزءاً من المأساة؛ بينما الدول المهيمنة على النظام الدولي والتي مازالت مجلة بالروح الاستعمارية والاستعلائية منهمكة في بناء ديكورات مسرح لتلك الملهاة ومنغمسة في صناعة المأساة باحثة عن أكثرها بشاعة لاستخلاص منها مزيداً من المصالح الاقتصادية قصيرة الأمد والمطامح السياسية غيبة النظر.

أما نحن، فكما هو متوقع منها فقد سارت إلى القيام بدورها كجودة تصنع الموسيقى التصويرية والخلفية الملحمية للمأساة، فجعلت همّها تشويه محاولات الشعوب لتحقيق الحرية والتخلص من الفساد وأنخرطت في تبرير عنف السلطة بالإرهاب الذي خلقه استبداد تلك السلطة. نحن أمام صورة كاريكاتورية لما عانى منه العالم العربي بعيد الحرب العالمية الأولى مباشرةً تمهدًا للتقطيع وتبريراً للاستعمار وتسكيناً للتطوعات الشعبية لبناء مستقبل حر وكريم.

ومع ذلك فإن هذا المشهد المتكرر تضمن، هذه المرة، عنصراً كان غائباً في المرات السابقة، وهو مجموعات الشباب الهائلة، من حيث العدد حوالي 60% من شعوبنا، ومن حيث امتلاكها لرؤى واضحة لا تنفع معها الأساليب التقليدية لأدوات القهر الاستبدادية ولا يمكن أن تتبعها أبواب النخب في ملاحمنها ومعاركها الضبابية البعيدة عن واقع شعوبها.

وإذا كان من الواجب أن نرى المشهد المأسوي العربي على حقيقته دون أن نغفل حالة الفراغ العربي على كامل الإقليم العربي وتمدد قوى أخرى في أحشائه؛ إلا إنه من غير المنصفاليوم أن نتحدث عن نهايات مشابهة لما حدث سابقاً من فوز مؤكّد للتحالف الثلاثي (الاستبداد والهيمنة والنخبوية) وانكسار أكيد للتطلعات الشعبية. فالحقيقة إن هذا التحالف يُواجه اليوم بمقاومة من الشباب العرب والذين تراجع لديهم قيمة الانقسامات الفكرية ولا يعتدون كثيراً بالفزعات التي اعتادت الحكومات المستبدة أن ترفعها بمواجهة التطلع للحرية.

كما إن الكلفة الاجتماعية التي تحملها الشعوب بسبب استمرار الاستبداد والانقلاب على ثورات الربيع العربي وبسبب فشل الحكومات التقليدية في تحقيق الأمن أو الرخاء أو العدالة، يدفع فئات مهمة، كانت تقليدياً تقف بجانب الاستبداد بمبررات مختلفة، لإعادة تقييم موقف مقارنة بين كلفةبقاء الاستبداد وعواوذه في مقابل كلفة التحول الديمقراطي وما يوفره من فرص لتحقيق الإزدهار وتأهيل منطقتنا لتصبح شريكاً لا تابعاً.

ربما آن لنا أن نقول أن عملية التغريب المستمر لمنطقتنا من قدراتها على الانتقال لمستقبل أفضل وتجريفيها من أمال الحرية والإزدهار أصبحت عملية مكلفة لمن يقوم بها، وأمست تواجه مقاومة تصاعد من أنصار الحرية والHallalim بالعدالة لدرجة أصبح كثيرون من مؤيدي الاستبداد غير موقنين بالانتصار هذه المرة في مواجهة تطلعات الشعوب.

هافينغتون بوست

المصادر: